المقدمة

لماذا هذا الكتاب؟

سبب الاهتمام: ذاتي. حيث كنت اكتشفت الشيخ الأكبر محي الدين ابن العربي الحاتمي الأندلسي [٥٥٦ هـ - ٦٣٨هـ]، وقد شغفت بكتاباته وعلومه ومعارفه، واهتممت بإخراجها إلى القراء[١]، حتى تعم الاستفادة. ومعلوم لدى المهتمين بتراث الشيخ الأكبر، أنه أبدع في الموضوعات التي تناولها، وخالف علماء الرسوم من حيث العمق والتأويل والرمز واستكناه الأسرار القرآنية، فلا تكاد تجد جملة أو فقرة في كتاباته، لا تحيرك، ولا تبعث فيك السؤال والبحث. فكل موضوعاته فريدة في التناول والتحليل والنتائج، وتتطلب مقدمات في الفهم والاستيعاب[٢]، تسهل عليك التعامل مع هذا التراث النبوي الأصيل. وموضوع "إيمان فرعون" طرح في الفتوحات وفي فصوص الحكم، في عدة مواضع من نصوصه، والمشهور عند الجمهور، العلمي وغيره، موقف الشيخ الأكبر بقبول الله إيمان فرعون، وأنه من أهل الجنة. وهو الموقف الذي كان سببا في الإنكار عليه، واتهامه بالكفر والزندقة، وتحريم النظر في كتبه، من قبل خصومه. وكنت كثيرا ما أمنّي النفس بالبحث في رؤية الشيخ الأكبر لهذه المسألة، حتى يتسنى لي الدفاع

---

(١) اهتم الكاتب بتراث الشيخ الأكبر، وأخرج عدة تآليف مستقاة من المشرب الأكبري منها: أولى الحقائق الوجودية – حقائق العرش- مسائل الطبيعة (مشترك) – الموسوعة الأكبرية لمقدمة الفتوحات المكية –الألوهة في رؤية الشيخ الأكبر –(تحت الطبع)- أسرار الطهارة–(تحت الطبع)- دراسات أكبرية –(تحت الطبع).

(٢) هناك مفاتيح للفهم السليم للشيخ الأكبر محي الدين بن العربي، ولتراثه، بحيث تمكن الباحث من الولوج إلى عالم العرفان، بثبات ووضوح. وكثيرا ما استعصى النص الأكبري على فحول الباحثين والمهتمين بالدراسات العرفانية، رغم تمرس بعضهم لعشرات السنين، فما بالك بمن كان حديث عهد به.

عنه، والتدليل على حججه وآرائه. ولما صادف أن اطلعت على بعض حجج الخصوم، افتتنت، وتحيرت، ووقعت في مشكل تخليص المسألة تخليصا عرفانيا وفقهيا شرعيا[1]. فعزمت على البحث في الموضوع، وإيلائه ما يستحق من اهتمام وجهد، وتوكلت على الله، طالبا العون منه، في فتح الذهن على الاستيعاب، وفتح القلب على الفهم والتيقن، من المسألة. فتتبعت الشيخ الأكبر، في نصوصه، وجمعت أقوال الخصوم، بما تيسر لي من جهد، ونشرت كل ذلك على محك الشرع، متتبعا ما يستأنسه قلبي من حق، دافعا كل

---

(١) اتضح لي أن الأستاذ محمد محمد عبد اللطيف بن الخطيب محقق كتاب: "إيمان فرعون" يتفق معي في أسباب التعرض إلى هذا الموضوع، حيث يقول في مقدمته، بتصرف:

[ومن المعلوم – عقلا ونقلا – أن فرعون كان من أئمة الكافرين، وأنه [يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود] ٩٨ هود. وأنه ممن كتب لهم الخلود فيها، وهل بعد ادعاء الألوهية من جرم؟ وقتل الضعفاء والأبرياء من إثم؟

..... هكذا اعتقدت، بل هكذا اعتقدت الأمة الإسلامية جمعاء، ولم يشذ عن هذا الاجماع واحد من المفكرين أو غير المفكرين، ممن ينتسب إلى العلم أو لا ينتسب، وينتمي إلى الدين أو لا ينتمي.

..... وبينما أنا أقرأ في "فصوص الحكم" لسيدي محي الدين بن عربي إذا به يقول قولا جازما، بإيمان فرعون إيمانا لازما، وأنه قد لقي ربه طاهرا مطهرا، سالما من العيب، بريئا من الذنب. فواصلت بحثي وتنقيبي وراء هذا الرأي، علّي أجد مؤيدا له بين السابقين أو معارضا، فوجدت في دار الكتب المصرية رسالة خطية للعلامة جلال الدين الدواني، تقول بما قال به سيدي محي الدين، وتؤيد ما ذهب إليه، ووجدت رسالة أخرى ترد على رسالة الدواني، للعلامة علي بن سلطان محمد القاري، أسماها: "فر العون من مدعي إيمان فرعون" فرأيت أن أسوق هذا البحث للقارئ، فقد يجد في قراءته متعة للروح والنفس، وقد يجد فيه ما يرتاح إليه، من شد وجذب، ومقارعة حجة بحجة، ودليل بدليل.

فإذا ما خرج القارئ من هذه المصارعة الفكرية الطلية: مقتنعا بإيمان فرعون ونجاته، فلا بأس عليه، ولا اتهام لعقيدته. وإذا طل تفكيره مصرا على تكفيره، فعلى ذلك جل المسلمين، بل كلهم].

الدواني، جلال الدين: إيمان فرعون، والرد عليه، للعلامة علي بن سلطان محمد القاري، وتأييد سيدي محي الدين بن عربي للإيمان، حققه وضبطه وحل مشكله: ابن الخطيب، محمد محمد عبد اللطيف، المطبعة المصرية ومكتبتها، ط ١، ١٩٦٤ م، صص ٣-٥.

هوى وتقليد بلا حجة، منتظرا ومتربصا بالحقيقة والخطأ من كل العلماء، بما فيهم الشيخ الأكبر. حيث لو كنت مقلدا له من غير بحث ولا اقتناع، لما جتهدت كل هذا الجهد.

لما أنهيت الكتاب، بمجموع أسئلته وأجوبته المستفيضة، مستنتجا ما اشتهر عن الشيخ الأكبر، من قبول الله لإيمان فرعون، لم تحصل لي طمأنينة كنت عهدتها في تآليفي السابقة. كانت هناك حشرجة في النفس، تمنعني من تذوق سكينة قلبية، طالما ألفتها في علاقتي مع الشيخ الأكبر.... وفاجأني الشيخ عبد الباقي مفتاح، الذي راجع الكتاب وأبدى ملاحظات مختلفة، بموقفه الداعي إلى شطب اسمه من الكتاب كمراجع ومشرف عليه... وفي خطوة ثانية، طلب مني أن أحذف كل علاقة له مع الكتاب... مفسرا قراره بأن الكتاب ليس "في سبيل الله" وأن نيته غير سليمة....ربما استنتج ذلك من اعتراضه على العنوان الأصلي، ومن جوابي له... فقد كان العنوان الأول المقترح:

عاش مشركا ومات مؤمنا

فرعون موسى

رضي الله عنه

بحث في الدقيقة الأخيرة من حياة فرعون

من خلال العرفان الصوفي

وكان الشيخ عبد الباقي يميل إلى البساطة والمباشرة في الطرح والعرض، ولا يحبذ التكلف ولا التعقيد، وكنت أجبته بأنني أقصد استفزاز الخصوم بهكذا عنوان.... فكان موقفه أن الاستفزاز لا يصدر عن نية خالصة لله...وأن الموضوع تفصيلة وجزئية لا تستحق كل هذا العناء، وأن نتائج نشر هذا الكتاب ستكون كارثية على الكاتب وعلى مستقبله.....

تقبلت رأي الشيخ بكل أدب، ورغم أنني لم أكن مقتنعا بما ذهب إليه من حيث النوايا... إلا أنني كنت أشعر بحيرة دائمة تصحبني منذ بداية التفكير في التأليف، إلى حد الانتهاء منه، وهي حيرة لم يبددها الكتاب، ولا كلام الشيخ عبد الباقي.....

وجدت ناشرا عربيا مستعدا لطبع الكتاب وتوزيعه.... لكنني تمهلت... وسحبت منه المشروع، في إطار تجنب استفزاز الخصوم، وتفادي ما يمكن أن يرتكبوه من حماقات، خاصة وأنني لا أزال أعاني من نتائج كتابي الأخير آنذاك: المكون السلفي في عقيدة الشيخ راشد الغنوشي، والذي طبع في تونس، ولاقى الحصار والإقصاء والمعارضة الشديدة، بل والعداوة من قبل أبناء النهضة والسلفيين....

مضت عدة أشهر، وأنا أعاني اضطرابا نفسيا داخليا، يشبه الرجات الخفيفه المرتدة عن زلزال عنيف.... حتى منّ الله عليّ بفتح كشفيّ أبان لي عن الإشكال الذي وقعت فيه، في ثلاث مناسبات، أكدت لي، بما لا يدع مجالا للشك، أن كل تحليلي ومؤازرتي للشيخ الأكبر، كانت خطأ في خطإ، وأن حقيقة مآل فرعون: أنه في النار، والقول بأن فرعون قبل إيمانه وهو في الجنة: قول خاطئ ليس بصحيح على الإطلاق....

كم كانت فرحتي وانفراج سريرتي وسعادتي لا توصف بهذا الكشف الذي أزاح عني غمّة تواصلت عدّة شهور... أثرت على كل أعمالي ومشاريعي وعلاقاتي ومعنوياتي..... حتى أنني أصبحت أؤمن بلعنة الفراعنة... كان الكشف على مراحل ثلاثة... انتهت بطمأنينة استعدتها، وسكينة، طالما افتقدتها لعدّة أشهر.... لكن تواصلت معي الحيرة بخصوص الموقف من الشيخ الأكبر: هل أخطأ الشيخ الأكبر؟ أم هل دسّ عليه الموقف المشهور عنه؟ وهل هو معصوم حتى لا يخطأ؟ أم أن فهمنا للموقف الأكبري اعتراه نقص وقصور؟؟..

لقد أدى بي البحث إلى نتائج قد تكون الأولى من نوعها في تاريخ الإشكالية، وفيما توفر لي من مصادر ومراجع اهتمت بالموضوع، وسيجد القارئ الكريم، متعة في تتبع الإشكالية، بوضوح وسلاسة، بحيث تتضح المسألة في ذهنه، بعيدا عن الخلفيات الجاهزة التي يُتّهم بها العارفون بالله، من قبل الخصوم. كما أبرزت في هذا البحث، الموقف الرسمي العقائدي للشيخ الأكبر، خلافا لما يشاع عنه عند مخالفيه وحتى عند مناصريه.

أترك القارئ الكريم يعيش أجواء الإشكالية كما نشأت في تراثنا العربي، ومختلف الآراء التي قيلت حولها، وأبعادها المعرفية والعقائدية... وهي مثال من أمثلة الحياة الفكرية والمعرفية التي شهدها تراثنا العربي الإسلامي.... بكل جوانبها الإيجابية الإبداعية والسلبية...